رسالة الإقتصاد

أ. د. صباح الدين زعيم *

قام الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي طوال حياته بوظيفة إنقاذ الإيمان، ونشر الإسلام، وجعل صدره درعاً تجاه جميع المضايقات والإيذاء ليبين وصف الإنسان المؤمن وسلوكه، وحاول توسيع العناصر اللازمة لصياغة المجتمع حسب الاسس الاسلامية. وربى ما اجتمع حوله من رعيل مخلص ونشرهم بمثابة شتلات في ثنايا المجتمع لهذا الغرض. وبدأت هذه الشتلات المزروعة بالإنتشار فيما بعد في كافة ربوع البلاد وسطح العالم، وقُدمت كتبه لفائدة الإنسانية بشتى اللغات.

يستند الإستاذ النورسي في افكاره ونشاطاته كافة إلى القرآن الكريم والسنة المطهرة. وبعبارة أخرى سعى الاستاذ النورسي تفسير القرآن الكريم والسنة المطهرة حسبما يدركه العصر الحالي من النمط والشكل.

وموضوع بحثنا اليوم إيضاح رسالة الإقتصاد للاستاذ بديع الزمان سعيد النورسي. وقبل الخوض في تحليل وإيضاح هذه الرسالة يجدر بنا الإشارة الى أن الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي مثلما اسند جميع إيضاحاته إلى القرآن الكريم والسنة المطهرة، قام إيضاً بتدقيق المواضيع الإقتصادية حسب نفس المصادر، وأسند استنتاجاته وأفكاره إلى هذه الأسس. وفي يومنا هذا يتم تحليل المواضيع الإقتصادية شرحاً وايضاحاً وتحليلاً مستنداً الى القرآن الكريم والسنة المطهرة ويقدم تحت اسم ''الإقتصاد الإسلامي''. وبهذا تعتبر الأفكار التي بينها الاستاذ النورسي في المواضيع الإقتصادية ضمن اطار تدقيق وتحليل الإقتصاد الاسلامي. وبتناولنا الموضوع بهذا المعنى تكون ''رسالة الإقتصاد'' قد بينت دراسة وبحثاً لقسم من الإقتصاد الاسلامي، وهو منهج سلوك المستهلك في الاسلام. وقد تطرق الأستاذ النورسي في رسائله الأخرى الى مختلف المواضيع المتعلقة بالإقتصاد الاسلامي، وقدم فيها تفسيرات وإيضاحات مستنداً الى الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة.

تتركز رسالة الإقتصاد أساساً على حكمة حرمة الإسراف ضمن سلوك المستهلك، وإيضاح تأثيراته الإيجابية والسلبية، وفق الآية الكريمة وكلوا واشربوا ولا تسرفوا. بل يشكل هذا الموضوع في اساسه مسئلة اساسية من مسائل الإنسانية في يومنا هذا.

فالإسراف في سلوك المستهلك، يزعزع موازنة الادخار والإستهلاك لدى الفرد من حيث أدنى قيمة للإقتصاد، كما يؤثر على توزيع المصادر، ونسب الإدخار والإستهلاك الإقتصادي من حيث اقصى قيمة له أيضاً، وكذلك يؤدي الى اختلال موازنات الواردات على الساحة العالمية.

واليوم يحكم في العالم الإقتصاد الإسرافي، حيث الناس يُحفَّزون دوماً الى الإستهلاك، فيتوجهون الى الإستهلاك فوق حاجتهم، فيزداد الإستهلاك الرفاهي، حيث يدفع اليه عن طريق الإعلانات الإحتياجات المصطنعة، وترجّح الرغبة عن المستلزمات ذات الجودة العالية التي يمكن تعميرها بعد العطب، إلى الإشياء التي تستخدم ثم تُرمى مباشرة بعد استعمالها. ونتيجة استعمال المواد البلاستيكية بحجة شعار ''استعمل ثم ارم..'' تتلوث البيئة من ناحية ومن ناحية أخرى تنفد المصادر أيضاً. وما نعانيه اليوم من مشكلة تلوث البيئة يكمن في اساسها الإسراف في الإستهلاك.

ونتيجة اختلال موزانات الموارد من جراء تضخم الإيراد الربوي، وقلة الزكاة، تزداد ميول طبقة الأغنياء نحو الرفاهية والإسراف أيضاً، وتساق المصادر الإنتاجية نحو تلبية طلباتهم، وعليه يجري العرض الإنتاجي.

ويقابل هذا أيضاً عدم تخصيص المصادر لإنتاج السلع التي تلبي الحاجات الضرورية للمجتمعات البشرية ذات الوارد القليل أو الكبير، فيختل في هذه السلع موازنة العرض والطلب، وتزداد الأسعار لعدم كفاية المنتجات الطلب. وذلك لإنخفاض

مرونة الطلب في السلع الضرورية. وعلى الرغم من هذا لا تلبى حاجتهم الضرورية الأولية. بينما تشوق على الإستهلاك المستمر من خلال زيادة سعة مجالات الإعلانات، وقروض الإعتماد، وكروت المصارف وغيرها، فتختل ميزانية الاسر من حيث الواردات ميزانية في المجتمعات الإنسانية لاستهلاك اكثر وارقى واحدث السلع، وجراء ذلك يقوم الأفراد والدول بأخذ القروض، ويفقدون نتيجة ذلك حريتهم الإقتصادية ايضاً.

والذين يخضعون رؤوسهم أمام الضغوط النفسانية للميول الإستهلاكية يضطرون إلى التنازل عن عزتهم، وإن اقتضى الأمر عن شرفهم، وحتى عن مشاعرهم الدينية والمعنوية، ولهذا تزداد الربا، والتوسل للآخرين، والرشوة، والزنا، فتفسد مبنى الأسرة، فيجب البحث عن تأثيرات سوء التصرف هذا في اساس كل ما اصاب العالم من التضخم المالي، والعجز في التجارة الخارجية.

وقد أثر هذا التخلخل على الايديولوجيات فأدت الى ظهور الأفكار الإشتراكية والماركسية. وقد انقسم العالم الى قسمين الرأسمالية والإشتراكية، وتنافسا تنافساً شديداً، ولم يستطع كلا النظامين الوقوف حيال الإسراف لعدم تغير قاعدة خط الحركة العام في سلوك الرجل الإقتصادي والمستهلك. ففي النظام الإشتراكي تمت المحاولة في ضبط الموازنة بنشر الترف والرفاهية والإسراف بالتدابير الإجبارية، فلم يوفقوا هذه المرة أيضاً في ضبط الموازنة على الرغم من التخطيط الجاري في المجتمع كافةً على أدنى حد،وذلك لفشلهم الإنتاجي.

والخلاصة: يضم هذه التخلخلات اساساً ادمان الإسراف، وفقدان الشكر والقناعة.

تسعى الضوابط التي جاء بها الإسلام لتنظيم سلوك المستهلك مستنداً الى قواعد القرآن الكريم والسنة المطهرة اذ تقدم النموذج الأمثل للإنسان المسلم. وقد اورد الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي هذه الضوابط في رسالة الإقتصاد بعبارات موجزة، متناولاً الموضوع وموضحاً اياه كالآتي:

الإنسان موظف بالشكر أبان استخدامه واستهلاكه النعم التي وهبها إياه خالقه الكريم. والإنسان الشاكر عليه ان يستخدم ما وهبه خالقه من النعم حسب حاجته وبقدر احتياجه ويقدرها حق قدرها، مفكراً ببني جنسه من الناس. وتنقسم الفعالية الإنتاجية حسب تصنيف الإمام الغزالي الى ثلاثة أقسام:

١ ‘‘الضروريات’’ إنتاج السلع الإحتياجية الضرورية: تساعد هذه للمحافظة على خمس مزايا من الميزات الأساسية للإنسان، وتحيط بإنتاج خدماته وممتلكاته كافة. والمزايا الخمس الأساسية للإنسان هي: الدين والنفس والعقل والنسل والمال.

٢ ‘‘الحاجيات’’ نشاطات انتاجية لتسهيل الحياة وتأمين الراحة: لا يعتبر هذا النوع من الإنتاج شرطاً للمحافظة على الميزات الخمس المذكورة آنفاً واستمراريتها، إلا انه نشاطات تخفف مشقة الحياة وتزيل المصاعب وتزيد من وسائل الراحة.

٣ ‘‘التحسينات أو الكماليات’’ نشاطات انتاجية لزيادة الترف والأناقة: تعتبر هذه رغبة خارج حدود تأمين الراحة أيضاً، وذلك لتطمين احاسيس الجمال والظرافة والأناقة، وتتعلق بإنتاج المال.

ويمكن تصنيف الإحتياجات بوجه آخر إلى سبعة أقسام: ١ الغذاء. ٢ الملبس. ٣ المصروفات. ٤ الصحة والسلامة. ٥ التربية. ٦ الأمن ‘‘الأمن الاجتماعي والإقتصادي والإداري’’. ٧ المواصلات.

يحاول الأفراد تأمين النقاط الثلاث الأوائل عن طريق محاولتهم وسعيهم الخاص. أما النقاط الأربع الأواخر فتتكلف الأعضاء المسئولة عن نظام المجتمع لتأمينها. وكما يمكن أن يكون هؤلاء الأعضاء من الحكومة، والإدارات المحلية، وبقية المؤسسات العامة المختلفة، كذلك يمكن ان يكون من الأوقاف التي وهبت نفسها لخدمة المجتمع في سبيل الله تعالى. حيث

تسمى هذه الأوقاف إلى جانب تسميتها بالقطاع الخاص والعام بالقطاع الثالث أيضاً، ويمكن تأمين تكلفة هذه الوظائف من قبل الفرد عن طريق الزكاة، والصدقات، أو عن طريق الضريبة والزكاة من قبل المؤسسات الاجتماعية أيضاً.

وبهذا ينبغى على الاغنياء المؤمنين والموحدين المتواجدين في مجتمع ما ان يحصلوا على حاجاتهم ضمن مقاييس معلومة، ان يقدموا ما يتبقى من الحاجة الزائدة لفائدة من يفتقر اليها من بنى جنسهم، وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول في حق من لا يغفر الله له من بين الناس: ''من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم'' وهناك كثير من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة المتعلقة بهذا الجانب. ولنذكر هنا عدة منها :

الآيات الكريمة:

١ ومثل الذين ينفقون اموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من انفسهم كمثل جنة بربوة اصابها وابل فاتت اكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطلٌّ والله بما تعملون بصير''البقرة:٢٦٥.

٢ ليس عليك هديهم ولكن الله يهدى من يشاء وما تنفقوا من خير فلانفسكم وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوفّ اليكم وانتم لا تظلمون ''البقرة: ١٧٢

٣ للفقراء الذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الارض يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف تعرفهم بسيميهم لا يسئلون الناس الحافاً وما تنفقوا من خير فان الله به عليم ''البقرة: ١٧٣

٤ الذين ينفقون اموالهم باليل والنهار سراً وعلانيةً فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ''البقرة: ٢٧٤

٥ يمحق الله الربوا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار اثيم ''البقرة: ٢٧٦

٦ يا ايها الذين امنوا انفقوا مما رزقناكم من قبل ان ياتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون ''البقرة: ٢٥٣

٧ مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ''البقرة: ٢٦١''

٨ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ''المائدة : ٢''.

الأحاديث الشريفة:

١ ''الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه''

٢ ''خير الناس أنفعهم للناس''

عند توجيه مصادر مجتمع ما نحو الإنتاج ينبغي الاجتناب عن تأمين الحاجات ذات الدرجة الثانية أو الثالثة في حالة عدم تأمين الحاجات الضرورية للناس كاملة. واليوم يموت مئات الألوف من الناس في العالم جوعاً في كل يوم لعدم تأمينهم الحاجات الضرورية لحياتهم، لا يحرك الناس الشبع ساكناً تجاه جيرانهم الذين يتجرعون ألم الجوع، بينما رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم يقول ''ليس منا من بات شبعان وجاره جائع'' وفي إيضاح هذه الخاصية يقول الأستاذ بديع الزمان:

'' ان الألم الذي ينتاب ذوي الوجدان من حيث العاطفة الانسانية - بما يرونه من آلام يقاسيها المحتاجون البائسون في هذا الزمان الذي خيّم عليه الفقر والحاجة - يشوّب لذتَهم التي يحصلونها بأموال غير مشروعة، وتزداد مرارتها ان كانت

لهم ضمائر. انه ينبغي في هذا الزمان العجيب الاكتفاء بحدّ الضرورة في الاموال المريبة، لانه حسب قاعدة ''الضرورة تقدر بقدرها'' يمكن ان يؤخذ باضطرارٍ من المال الحرام حدَّ الضرورة وليس اكثر من ذلك. وليس للمضطر ان يأكل من الميتة الى حدّ الشبع، بل له ان يأكل بمقدار ما يحول بينه وبين الموت. وكذا لا يؤكل الطعام بشراهة امام مائة من الجائعين.'' ''اللمعات ص٢١٦''

ولهذا السبب كان المؤمنون والموحدون من الناس قديماً لا يأكلون شيئاً علناً في الأسواق ليحولوا دون تحريك شهية الآخرين، وكانوا لا ينقلون المواد الغذائية مكشوفة، بل يسترونها بغطاء، فإنطلاقاً من هذه الفكرة القيمة ينبغي لمثل هؤلاء العباد السعداء الذين يملكون الوسع في تأمين حاجاتهم ان يعرفوا قيمة النعم ويشكروا خالقهم الكريم دائماً.

ويكون أداء شكر تأمين حاجاتنا الأساسية اليومية حسب تعبير الأستاذ بديع الزمان بـ ''توقيرٌ مربح ازاء النعمة'' ويطلق على هذا بالإقتصاد. والذي لا يراعي الإقتصاد يتخبط في الإسراف، والإسراف منافٍ للشكر وهذا ''استخفاف خاسر وخيم تجاه النعمة''.

وعليه يجب ان نفكر بما نشتريه من الخبز ونأتي به إلى بيوتنا ابتداءً بمرحلة زرع حبات هذه النعمة في التراب وحصادها، واستخراج الحبات من السنابل، وجعلها على شكل دقيق بعد الطحن، وخبزها في الأفران، ونقلها إلى البيوت، وهذا يتحقق بعد تعاون كثير من الناس، وتقسيم الأعمال فيما بينهم، ونأكل هذه النعمة ضمن هذا الشعور ونواجه الله تعالى على لطفه هذا بـ ''بتوقير مربح '' حسب تعبير الاستاذ بديع الزمان سعيد النورسي. أي ألاّ نهدره ونستخفّ به ونترك نصفاً منه في الأطباق ثم نلقيه في سلة المهملات وهو ''استخفاف خاسر''.

بينما اليوم يموت آلاف من الناس جوعاً كما ذكرنا نرى ونسمع ونقرأ في المجتمعات ذات الحالة الإقتصادية المتوسطة مثلنا ناهيك عن المجتمعات الغنية الراقية اسراف آلافٍ من رغائف الخبز كل يوم، وترك الأكل في الأطباق ورميه في سلة المهملات. وهذا الأسراف هو ''استخفاف خاسر وخيم تجاه النعمة''، بينما يجب علينا في حالة استحقاقنا هذه النعم ان نقابلها بـ ''توقير مربح''.

فأجدادنا المؤمنون الموحدون الذين كانوا يعلمون مثل هذا التوقير كانوا يرفعون ما يسقط من الخبز على الأرض ويقبلونها ثم يضعونها على رؤوسهم احتراماً للنعمة، وكانوا يعتنون كي لا تتساقط فتات الخبز من السفرة على الأرض.

وحسب إفادة الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي يطلق على مثل هذا التصرف بـ ''الإقتصاد''. وكما يتراءى ان معنى الإقتصاد المتطور الراقي يستند إلى هذا الأساس، ولهذا السبب لو تذكرنا ان تعريف الإقتصاد في الكتب الإقتصادية هو ''كيفية تسديد المصادر المحدودة لحاجات غير محدودة للإنسان بأحسن شكل ممكن'' عندها يفهم مدى العمق والإصابة في تعريف بديع الزمان للإقتصاد اكثر فأكثر.

ولو قسمنا الإقتصاد الذي يفيد - كما ذكر في رسالة الإقتصاد - من ''توقير مربح'' إزاء النعم التي هي من لطفه سبحانه إيانا، إلى عناصره نرى أنه يحوى على ست عناصر مهمة:

١- ''الإقتصاد شكر معنوي''

بما أن الأنسان ليس عبارة عن جسد فحسب، لذا يجب عليه الإجتناب عن الإسراف، وان يراعي الإقتصاد بانبعاث النشوة وذوق معنوي من أعماق روحه لإداء شكر تجاه ما يوهب له من النعم لسد حاجاته اليومية وعلى رأسها حاجته الى الغذاء.

٢- ‘‘الإقتصاد توقير للرحمة الإلهية الكامنة في النعم والإحسان’’:

ينبغي على الإنسان ان يعدّ ما تقدم له من النعم رحمة إلهية ويعرف قيمتها ضمن شعوره وإدراكه ان الكون قد خلق له، وما فيه من المخلوقات قد سخرت لأمره من قبل خالقه الكريم. وذلك ان الله تعالى قد تكفل برزق العباد، فرزق من شاء، وأمسكه عمّن شاء. والذي يشعر هذا يقتضي عليه ان يعد ما ينال من النعم أنها رحمة إلهية، ويعرف قيمتها.

٣- ‘‘الإقتصاد سبب حاسم للبركة والإستكثار’’:

ان الذي يراعي الإقتصاد في حياته، يزيده الله تعالى نعماً فوق ما في لديه من النعم ويباركها بما يظهر من الخدمة تجاه الرحمة الإلهية، ويؤدي من الشكر إزاء نعمه تعالى، ويرفع البركة عمّن لا يراعي الإقتصاد ويلج في الإسراف.

يقول الأستاذ النورسي في احدى ذكرياته المتعلقة بهذا الموضوع:

‘‘جئت الى مدينة مباركة - قبل تسع سنوات - كان الموسم شتاءً فلم اتمكن من رؤية منابع الثروة وجوانب الانتاج في تلك المدينة، قال لي مُفتيها رحمه الله: ان أهالينا فقراء مساكين. أعاد قوله هذا مراراً. أثّر فيّ هذا القول تأثيراً بالغاً مما أجاش عطفي، فبت استرحم وأتألم لأهالي تلك المدينة فيما يقرب من ست سنوات. وبعد ثماني سنوات عدتُ اليها وهي في اجواء الصيف، وأجلت نظري في بساتينها فتذكرت قول المفتي رحمه الله فقلت متعجباً:

- سبحان الله! ان محاصيل هذه البساتين وغلاتها تفوق حاجة المدينة بأسرها كثيراً، وكان حرياً بأهاليها ان يكونوا أثرياء جداً! بقيت في حيرة من هذا الامر.. ولكن ادركت بحقيقة لم تخدعني عنها المظاهر، فهي حقيقة استرشد بها في ادراك الحقائق، وهي: ان البركة قد رفعت من هذه المدينة بسبب الاسراف وعدم الاقتصاد. مما حدا بالمفتي رحمه الله الى القول: ان اهالينا فقراء ومساكين، برغم هذا القدر الواسع من منابع الثروة وكنوز الموارد.

نعم، انه ثابت بالتجربة وبالرجوع الى وقائع لا تحد بأن دفعَ الزكاة، والأخذ بالاقتصاد سببان للبركة والاستزادة. بينما الاسراف ومنع الزكاة يرفعان البركة.’’ ‘‘اللمعات: ٢٢٣’’

واليوم يشبه حال العالم الإسلامي هذا الحال عامة، إنهم يتجرعون الفقر ضمن الغنى، والعالم الإسلامي على الرغم من امتلاكه مصادر مهمة يستدين من اراذل الناس جراء عدم إظهار فقرائه الشكر والقناعة، وإغنيائه التعاون والإشتراك في الأعمال ضمن تقسيمها بسبب الإسراف والخسة.

اليوم يحوي العالم الإسلامي على أغنى وأفقر الدول، وقد وقع اغنياؤه وفقراؤه معاً في ذلّ الدَّين. وذلك ان من كان ينبغي الأخوة والتآزر منهم قد زاد بينهم البغض وتسلّح كل منهم ضد أخيه، وبدأوا بشراء هذه الأسلحة من الأخرين دَيناً لعدم إمكانهم من القيام بإنتاجها بإنفسهم، ففقدوا عزتهم في أيدي تجار الإسلحة وسقطوا في مهاوي الذل والإستحقار.

٤- مرعاة الإقتصاد في تسديد الحاجة إلى الغذاء لها تأثير صحي من حيث الطب والمداواة إلى جانب فوائده المعنوية والتجارية. وذلك ان الغذاء المتناول بالقدر اللازم المعقول يساعد على لحمل الجسم. بينما يضطر الجسم إلى حمله عند تناوله بشكل زائد. فالإكثار من الغذاء يجبر الجسم على الحمالة ويتعبه، فالرعاية للإقتصاد ‘‘مدار صحة الجسد كالحمية’’.

وعبارة الأستاذ: ولقد فسّر ‘‘ابن سينا’’ وهو افلاطون فلاسفة المسلمين وشيخ الاطباء واستاذ الفلاسفة فسّر هذه الآية الكريمة: وكلوا واشربوا ولا تُسرفوا من زاوية نظر الطب فقط بالابيات الآتية:

جمعتُ الطبَّ في بيتين جَمعاً وحُسن القول ِفي قِصَر الكلام

فقلل إن اكلتَ وبعد أكل تَجنّب، والشفاءُ في الإنهضام

وليس على النفوس أشدُّ حالاً من إدخال الطعام ِعلى الطعام.

اي ان أضر شئ للجسم هو عدم اعطاء مهلة بين وجبات الطعام تتراوح بين اربع او خمس ساعات، او املاء المعدة بادخال الطعام بالتعاقب لأجل التلذذ''. ''اللمعات:٢٢٣''

ولو أخذنا بنظر الأعتبار ما يتبعه البعض منا - أو أكثريتنا- من نظام التغذية اليوم، نرى اننا نتناول الأغذية بمقادير يضطر الجسم الى حملها أكثر من أن تحمل هي الجسم، وان الجسم يخزن تلك الأغذية دون ان يهضمها، ويجبر أخيراً على حملها.

ولو تذكرنا ان زيادة هذه الأغذية - أي الولوج في الأسراف بتناولها - تؤدي بتكوين الدهون وأمثالها من المخزون الناجم من كثرة الأغذية امثال السكريات والكولسترول والبروتينات والدهنيات التي تسبب أمراضاً مختلفة، عندها نفهم الفضيلة الرابعة لمدى أهمية الرعاية بالإقتصاد والإجتناب عن الإسراف في التغذية.

٥- الفضيلة الخامسة:

وحسب تعبير الأستاذ ''الإقتصاد هو سبيل الى العزة بالابتعاد عن ذلّ الاستجداء المعنوي'' ان المقتصد لا يعاني فاقة العائلة وعوزها كما هو مفهوم الحديث الشريف ''لا يعول من اقتصد''١. اجل هناك من الدلائل القاطعة التي لا يحصرها العدّ بأن الاقتصاد سبب جازم لإنزال البركة، واساس متين للعيش الافضل. أذكر منها ما رأيته في نفسي وبشهادة الذين عاونوني في خدمتي وصادقوني باخلاص فأقول: ''لقد حصلتُ احياناً وحصل اصدقائي على عشرة اضعاف من البركة بسبب الاقتصاد. حتى انه قبل تسع سنوات عندما أصرّ عليّ قسم من رؤساء العشائر المنفيين معي الى ''بوردور'' على قبول زكاتهم كي يحولوا بيني وبين وقوعي في الذلة والحاجة لقلة ما كانت عندي من النقود، فقلت لاولئك الرؤساء الاثرياء: برغم أن نقودي قليلة جداً الاّ انني املك الاقتصاد، وقد تعودت على القناعة، فانا أغنى منكم بكثير. فرفضتُ تكليفهم المتكرر الملح.. ومن الجدير بالملاحظة ان قسماً من اولئك الذين عرضوا عليّ زكاتهم قد غلبهم الدَّين بعد سنتين، لعدم التزامهم بالاقتصاد، الاّ أن تلك النقود الضئيلة قد كفتني - ولله الحمد - ببركة الاقتصاد الى ما بعد سبع سنوات، فلم تُرق مني ماء الوجه، ولم تدفعني لعرض حاجتي الى الناس، ولم تفسد عليّ ما اتخذته دستوراً لحياتي وهو ''الاستغناء عن الناس''.

نعم ان من لا يقتصد، مدعوّ للسقوط في مهاوي الذلّة، ومعرض للانزلاق الى الاستجداء والهوان معنىً.

ان المال الذي يستعمل في الاسراف في زماننا هذا لهو مال غالٍ وباهظ جداً، حيث تدفع احياناً الكرامة والشرف ثمناً ورشوة له، بل قد تُسلب المقدسات الدينية، ثم يُعطى نقوداً منحوسة مشؤومة، اي يقبض بضعة قروش من نقود مادية، على حساب مئات الليرات من النقود المعنوية.''

ولو أمعنا النظر اليوم للأمم الفقيرة أو التي تحس نفسها فقيرة والتي دخلت تحت عبء الديون الثقلية لتبين أنها قد فقدت شيئاً كثيراً عن حقوق حاكميتها، وعزتها الملية، واجبرت لتقاضي الديون بصورة مستمرة، حتى أصبحت مصابة بداء الذل والتوسل المعنوي. ويرجع سبب ذلك إلى فقدان القناعة وعدم مراعاة الإقتصاد والوقوع في الإسراف من قبل أفراد تلك الأمة وبالأخص من قبل الكوادر الإدارية لشئون ذلك المجتمع. بينما كان الرسول صلى الله عليه وسلم اذا رفع يده ليناجي ربه يقول بما معناه ''اللّهم اعوذ بك من المأثم والمغرم'' والذي نراه هنا هو اقتران الدين - في غير حاجة- بأرتكاب الذنوب. لذا ينبغي على المؤمنين والموحدين من الناس يسلكوا ما يوافق الكتاب والسنة في الإستهلاك، ويراعوا الأسس التالية:

١ عدم صرف الواردات في المجالات غير المشروعة، أما مجالات الصرف فهي تتوضح ضمن اطار المشروعية التي

بينها الإسلام. والله يأمرنا في الآية الكريمة : يا ايها الذين امنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون ‘‘البقرة: ١٧٢’’ يا ايها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين ‘‘البقرة: ١٦٨’’ يا ايها الذين امنوا لا تحرموا طيبات ما احل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين* وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذي انتم به مؤمنون ‘‘المائدة: ٨٧-٨٨’’ ومن الإنعام حمولة وفرشاً كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين ‘‘الأنعام: ١٤٢’’.

٢ يجب الإبتعاد عن استهلاك المصروفات الباهظة الراقية الجالبة للأنظار والله تعالى يقول في الآية الكريمة والذين ينفقون اموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً ‘‘النساء: ٣٨’’ وما انفقتم من نفقة او نذرتم من نذر فان الله يعلمه وما للظالمين من انصار ‘‘البقرة: ١٧٠’’

على المسلم المتواضع أن يعيش حسب مستوى حياة المجتمع الذي يتواجد فيه، وان لا يستهلك رئاءً ليهيج حسد الفقير ويحرك غبطته تجاهه.

٣ حصر مقدار الإستهلاك في الساحات المشروعة حسب الحاجات الضرورية، وبذل الجهد لحفظ النعمة حتى آخر حبة منها وعدم الإسراف فيها، وذلك أن الله لا يحب المسرفين.

٤ وكما يجب الإجتناب عن الإسراف في الإستهلاك ينبغي عدم الدخول تحت ثقل الديون فيما لا ضرورة فيه أيضاً.

٦- مراعاة الإقتصاد سبب احساس اللذات الموجودة في النعم: يذكر الاستاذ بديع الزمان مثالاً ويشبّه فيه حاسة الذوق بالحارس، والمعدة بسيدة الجسد وحاكمته. ‘‘فلو بلغت قيمة هدية تُقدَّم الى حاكم القصر مائة درجة فان خمساً منها فقط يجوز أن يعطى هبةً للحارس لا اكثر’’ .

يشير الإستاذ النورسي هنا إلى ما اشتهر من قانون نقصان الفائدة لعلم الإقتصاد، فلو راعينا الإقتصاد في الإستهلاك عندها تزداد فائدة نسبة وحدة الإستهلاك، ولو اسرفنا بزيادة الإستهلاك قلت فائدة نسبة وحدة الإستهلاك حسب قانون نقصان الفائدة، وبزيادة الإسراف تهبط نحو الصفر، حتى تصبح سالباً.

ويستمر الإستاذ النورسي في كلامه قائلاً:

‘‘بينما لو اقتصر الانسان على الحاجات الضرورية واختصرها وحصر همّه فيها، فسيجد رزقاً يكفل عيشه من حيث لا يحتسب وذلك بمضمون الآية الكريمة:

ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين ‘‘الذاريات: ٥٨’’ وأن صراحة الآية الكريمة:

وما من دابة في الارض الاّ على الله رزقها ‘‘هود:٦’’ تتعهد بذلك تعهداً قاطعاً’’.

وحسب تعبير الإستاذ النورسي: ‘‘ان من كمال كرم الله سبحانه وتعالى، أنه يُذيقُ لذّة نِعمه لأفقر الناس، كما يذيقها أغناهم، فالفقير يستشعر اللذة ويتذوقها كالسلطان. نعم ان اللذة التي ينالها فقير من كسرة خبز اسود يابس بسبب الجوع والاقتصاد تفوق ما يناله السلطان او الثري من اكله الحلوى الفاخرة بالملل وعدم الشهية النابعين من الاسراف.’’.

ولهذا السبب يتناسب الرزق تناسباً عكسياً مع الواردات في الذين لا يعيشون حسب الضوابط الإسلامية. فكلما زادت الواردات زاد الرزق. وقد تعهد الله تعالى في كتابه القرآن الكريم رزق ما خلق من المخلوقات، يجيب الأستاذ النورسي هنا على سؤال مقدرٍ ويفسر الآية الكريمة. أي ما دام الله تعالى قد تعهد برزق المخلوقات وتكفله، فلماذا يموت مئات الألوف

من الناس جوعاً؟

يجيب الاستاذ النورسي على هذا السؤال كما يلي:

‘‘نعم، ان الرزق قسمان:

القسم الاول: وهو الرزق الحقيقي الذي تتوقف عليه حياة المرء، وهو تحت التعهد الرباني بحكم هذه الآية الكريمة، يستطيع المرء الحصول على ذلك الرزق الضروري مهما كانت الاحوال، ان لم يتدخل سوء اختياره، دون ان يضطر الى فداء دينه ولا التضحية بشرفه وعزته.

القسم الثاني: هو الرزق المجازي، فالذي يسئ استعماله لا يستطيع ان يتخلّى عن الحاجات غير الضرورية، التي غدت ضرورية عنده نتيجة الابتلاء ببلاء التقليد. وثمن الحصول على هذا الرزق باهظ جداً ولاسيما في هذا الزمان، حيث لا يدخل ضمن التعهد الرباني، اذ قد يتقاضى ذلك المال لقاء تضحيته بعزته سلفاً راضياً بالذل، بل قد يصل به حد السقوط في هاوية الاستجداء المعنوي، والتنازل الى تقبيل اقدام أناس منحطين وضيعين، لا بل قد يحصل على ذلك المال المنحوس الممحوق بالتضحية بمقدساته الدينية التي هي نور حياته الخالدة.’’

فالمصائب التي تتعرض لها الفقراء من الناس اليوم تتولد من جراء اسقاط حاجاتهم الضرورية الى مستوى الرزق المجازي، أو عن ظنهم الرزق المجازي احتياجاً ضرورياً. واليوم ما تستورد من المواد من الخارج للدول المتخلفة الكثيرة ومن ضمنها تركيا، والتي تسبب تقاضي ديوناً كبيرة هي أموال تنتمي إلى مجموعة الرزق المجازي أكثر من كونها من فصيلة الرزق الحقيقي.

إننا نستورد المواد التي تسهل أساساً المعيشة، للترف والظرافة بسبب الإعلام، والتقليد، وعدم القناعة، بينما طاقتنا الإنتاجية الحقيقية أي وارداتنا لا تكفي لشراء مثل هذه الإشياء، إننا نشتريها بما نتقاضى من الديون لعدم قناعتنا، وبتقاضي الديون نهوي في مستنقع الربا الآسن ونفقر أكثر فأكثر.

وقد سيق الإداريون - ولو نسبياً- في كثير من الدول المتخلفة من قبل المستعمرين لخوض الحصول على الرزق الكاذب بالقوة. فمثلاً: وجّه بعض الدول الأفريقية الصالحة أراضيها الصالحة لزراعة الغذاء الضروري كالقمح والذرة اللازمة، إلى زراعة الكاكاو وغيرها من المواد الغير الضرورية كي تكون شعوبها محتاجة في تأمين رزقها إلى المستعمرين.

وينبغي الوقوف على فرق مهم من بحث الإقتصاد ألا وهو الفرق بين الإقتصاد والخسة.

٧- الفرق بين الإقتصاد والخسة: إن الله لا يحب الإسراف والخسة، وحسب تعبير الاستاذ النورسي:

‘‘ومن العجب حقاً ان يجرؤ بعض المسرفين والمبذّرين على اتهام المقتصدين بالخسّة..حاشَ لله، بل الاقتصاد هو العزة والكرم بعينه، بينما الخسة والذلة هما حقيقة ما يقوم به المسرفون والمبذرون من سخاء ظاهري.’’

الإبتعاد عن الإسراف يفتح السبيل إلى الإقتصاد، والإقتصاد يحول بيننا وبين الوقوع في الإحتياج عند الضرورة.

والله تعالى يأمر في الآية الكريمة: الشيطان يعدكم الفقر ويامركم بالفحشآء والله يعدكم مغفرةً منه وفضلاً والله واسعٌ عليم ‘‘البقرة: ٢٦٨’’

‘‘دخل عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وهو اكبر ابناء الفاروق الاعظم خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد العبادلة السبعة المشهورين ومن البارزين بين علماء الصحابة الأجلاء، دخل هذا الصحابي الجليل يوماً في

مناقشة حادة لدى تعامله في السوق على شئ لايساوي قرشاً واحداً، حفاظاً على الاقتصاد وصوناً للأمانة والاستقامة اللتين تدور عليهما التجارة. في هذه الاثناء رآه صحابي آخر، فظنّ فيه شيئاً من خسّة فاستعظمها منه، اذ كيف يصدر هذا الامر من ابن أمير المؤمنين وخليفة الارض. فتبعه الى بيته ليفهم شيئاً من احواله، فوجد أنه قضى بعض الوقت مع فقير عند الباب وتبادلا حديثاً في لطف ومودة، ثم خرج من الباب الثاني وتجاذب اطراف الحديث مع فقير آخر هناك. أثار هذا الامر لهفة ذلك الصحابي فأسرع الى الفقيرين للاستفسار منهما:

- هلاّ تفهماني ماذا فعل ابن عمر حينما وقف معكما؟.

- لقد اعطى كلاً منا قطعة ذهب.

فراعه الامر وقال شدهاً: يا سبحان الله.. ما أعجب هذا الامر، انه يخوض في السوق في نقاش شديد لأجل قرش واحد، ثم ها هو ذا يغدق في بيته بمئات أضعافه على محتاجَين اثنين عن رضىً دون ان يشعر به أحد، فسار نحو ابن عمر رضي الله عنهما ليسأله:

- ايها الإمام: ألا تحل لي معضلتي هذه؟ لقد فعلتَ في السوق كذا وكذا وفي البيت كذا وكذا؟! فردّ عليه قائلاً:

- ان ما حدث في السوق هو نتيجة الاقتصاد والحصافة، فعلتُه صوناً للامانة وحفظاً للصدق اللذين هما اساس المبايعة وروحها وهو ليس بخسّةٍ ولاببخل، وان ما بدر مني في البيت نابع من رأفة القلب ورقّته ومن سمو الروح واكتمالها.. فلا ذاك خسّة ولا هذا اسراف.

واشارةً الى هذا السرّ قال الامام الاعظم ‘‘ابو حنيفة النعمان’’ رضي الله عنه:’’لا اسراف في الخير كما لا خير في الاسراف’’ أي كما لا اسراف في الخير والاحسان لمن يستحقه كذلك لا خير في الاسراف قط.’’.

نتيجة الإسراف: تهييج الحرص.

٨- الاسراف ينتج الحرص، والحرص يوَلد ثلاث نتائج:

١- عدم القناعة.

٢- الخيبة والخسران.

٣- اتلافه الاخلاص وافساده العمل الأخروى.

أولاها: عدم القناعة أي الطمع يُخبت وهج الشوق والتطلع الى العمل ويقذف بالإنسان إلى التقاعس والكسل.

وحسب تعبير الأستاذ النورسي: ‘‘وعدم القناعة هذا يُثنى الشوقَ عن السعي وعن العمل، بما يبثّ في نفس الحريص من الشكوى بدلاً من الشكر، قاذفاً به الى احضان الكسل، فيترك المال الزهيد النابع من الكسب الحلال ويبادر بالبحث عما لا مشقة ولا تكليف فيه من مال غير مشروع، فيهدر في هذه السبيل عزتَه بل كرامته.’’

لذا حرم الإسلام لعب اليانصيب والقمار وغيرها، ومنع طرق الولوج إلى الربح بدون تعب وسعي بالخداع وإغفال الآخرين والصعود إلى القمة رأساً دون تعب.

النتيجة الثانية للحرص : الخيبة والخسران:

‘‘ان الرزق الحلال يأتي حسب العجز والافتقار لا بالاقتدار والاختيار. بل هو يتناسب تناسباً عكسياً مع الاقتدار

والاختيار. ذلك ان ارزاق الاطفال تتضائل وتبتعد ويصعب الوصول اليها كلما ازدادوا اختياراً وارادةً واقتداراً.

نعم، ان القناعة كنز للعيش الهنئ الرغيد ومبعث الراحة في الحياة، بينما الحرص معدن الخسران والسفالة كما يتبين ذلك من الحديث الشريف: ''القناعة كنز لايفنى'' ٢.

النتيجة الثالثة: ''ان الحرص يتلف الاخلاص ويفسد العمل الاخروي''؛ لانه لو وُجد حرص في مؤمن تقي لرغب في توجه الناس واقبالهم اليه، ومن يرقب توجه الناس وينتظره لا يبلغ الاخلاص التام قطعاً ولا يمكنه الحصول عليه. فهذه النتيجة ذات اهمية عظمى جديرة بالدقة والملاحظة. ''

''اما الاقتصاد فانه يثمر القناعة، والقناعة تنتج العزة، استناداً الى الحديث الشريف: ''عزّ مَن قنع وذلّ مَن طمع''. كما انه يشحذ الشوق بالسعي والعمل ويحث عليهما ويسوق سوقاً الى الكدّ وبذل الجهد فيهما؛ لانه اذا ما سعى المرء في يوم ما وتقاضى اجره مساءً فسيسعى في اليوم التالي له بسر القناعة التي توافرت لديه. اما المسرف فانه لايسعى في يومه الثاني لعدم قناعته وحتى اذا سعى فانه يسعى دون شوق.

وهكذا فان القناعة المستفيضة من الاقتصاد تفتح باب الشكر وتوصد باب الشكوى، فيظل الانسان في شكر وحمدٍ مدى حياته. وبالقناعة لا يتلفت الى توجه الناس اليه لإستغنائه عنهم، فينفتح امامه باب الاخلاص وينغلق باب الرياء.''

---

*ا. د.صباح الدين زعيم: ولد سنة ١٩٢٦ في اشتيب، وتخرج من كلية العلوم السياسية بجامعة انقرة سنة "١٩٤٧" ومن كلية الحقوق بجامعة انقرة سنة "١٩٥٠" وعمل استاذاً في كلية الإقتصاد بجامعة إسطنبول "١٩٥٣- ١٩٨٩" وفي كثير من الجامعات "جامعة ملك عبدالعزيز ١٩٨٠-١٩٨٢، وجامعة كونيل الأمريكية ١٩٥٥-١٩٥٧" واصبح عضواً في لجنة تقييم وتعيين الإداريين ببنك التنمية الإسلامية "١٩٧٧-١٩٧٨"، وعمل مشاوراً في المؤتمر الاسلامي حول البنك الاسلامي، وعمل عضواً تعليمياً في نقابة عمال الأتراك "١٩٦٥- ١٩٧٦" وعضواً في اللجنة الاستشارية العليا بجامعة ملك عبدالعزيز في مجال الإقتصاد الاسلامي العالمي "١٩٧٨- ١٩٨٢" وعضواً في هيئة ادارة جامعة الشرق الأوسط للتكنلوجيا في انقرة "١٩٧٧-١٩٧٩". ومنذ سنة ١٩٨٥ يعمل في هيئة ادارة جامعة اسلام آباد "باكستان" العالمية، ويعمل في عضوية جمعية العلاقات الصناعة العالمية، وعضوية جمعية الصداقة التركية الليبيا، وعضوية جمعية الصداقة التركية السعودية. وقد جلب الأنظار على الأكثر بكتبه ومقالاته وابحاثه حول الإقتصاد الاسلامي، والعمل الإقتصادي المشترك بين البلدان الاسلامية. صدر له :تركيا والسوق الأوروبية المشتركة "١٩٧٠" مسئلة النفوس في تركيا "١٩٧٠" نظرة الاسلام الإقتصادية "١٩٨٧" الإسلام والإنسان والإقتصادي "١٩٩٢" تجديد بناء تركيا والعالم الإسلامي "١٩٩٣"،وله ابحاث وتحقيقات حول الإقتصاد.

١ كشف الخفاء ١٨٥/٢، ١٥٨/١

٢ كشف الخفاء ١٠٢/١ وتمييز الطيب ص ١١٨.